journal of Imam Al-Kadhum College (Peace be upon him) مجلة كلية الإمام الكاظم (عليه السلام)
Volume (7) Issue(3) September 2023 – 2023 المجلد (7) العدد (3) أيلول

معنَى المُتكلِّم عِنْدَ كَمَالِ الدين مَيْثَم بن عليّ البَحرَانيّ (ت679هـ) في شَرْحِهِ لِنَهجِ البلاغَةِ

م.د. أحمد صبر كعيِّد - كليَّة الإمام الكاظم (ع)

The meaning of speaker according kmal aldeen den ali al-behrany

dr. Ahmed saber kaeed

Abstract:

This paper aims to contemplate the mechanisms and means used by Sheikh Maytham Al-Bahrani in his book (Explanation of Nahj Al-Balaghah) to reveal and deduce the purposes of Imam Ali (peace be upon him), and to compare those inferences with what was produced by the project of the American philosopher (Paul Grice), who is one of the most important contributors to the study The meaning in the modern Western lesson, and the focus will be on the concept (Speaker's meaning) and what is related to it, especially the principle of cooperation and the rules that govern dialogue, and the meanings that are generated when those rules are violated. I believe that this approach and others like it contribute to presenting a new reading of our linguistic heritage, in addition to enabling us to assess the value of that heritage, which contains the roots of most modern linguistic theories.

المستخلص :

يهدف هذا البحث إلى تأمّل الآليَّات والوسائل التي اعتمدها الشيخ مَيثم البحرانيّ في كتابه (شرح نهج البلاغة) للكشف عن مقاصد الإمام عليّ (عليه السلام) والاستدلال عليها، ومقاربة تلك الاستدلالات مع ما أنتجه مشروع الفيلسوف الأمريكيّ (بول غرايس) وهو أحد أهم المساهمين في دراسة المعنى في الدرس الغربيّ الحديث، وسيتمُّ التركيز على مفهوم (معنى المتكلّم) وما يتعلقُ به لا سيما مبدأ التعاون والقواعد التي تحكم الحوار والمعاني التي تتولد حينما تُخرقُ تلك القواعد. وفي اعتقادي أنَّ هذه المقاربة وأمثالها تُسهم في تقديم قراءة جديدة

Article history
Received: 12/8/2023
Accepted: 15/8/2023
Published: 30/9/2023

تواريخ البحث
تاريخ الاستلام:12/8/2023
تاريخ القبول:15/8/2023
تاريخ النشر:30/9/2023

Keywords:meaning, speaker,dialogue,Maytham,Bahrani,Grace.
الكلمات المفتاحيَّة: معنى، المتكلّم، الحواري، ميثم، البحرانيّ، غرايس.
https://doi.org/10.30907/jcopolicy.vi65.662

© 2023 THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

Corresponding author:
dr. Ahmed saber kaeed
ahmedsabor@alkadhum-col.edu.iq

DOI: https://doi.org/10.61710/5vde2s40

لتراثنا اللغويّ، فضلاً عن أنّها تمكننا من الوقوف على قيمة ذلك التراث الذي يتضمَّن جذوراً لأغلب النظريَّات اللُّغويّة الحديثة.

المُقدّمَة:

مما لا يخفى أنَّ كتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضيّ (406هـ) من أسمّى مدوّنات التراث العربيّ والإسلاميّ وأعظمها، كيف لا وهو يضمُّ كلامَ سيد الفصاحة وإمام البلاغة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الذي اجتمعت له من الفضائل والمزايا والمحاسن ما ملأ الخافقين، حتى قال فيه ابن النظّام المعتزليّ (ت221هـ): "عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِحْنَةٌ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ، إِنْ وَفَّاهُ حَقَّهُ غَلَا، وَ إِنْ بَخَسَهُ حَقَّهُ أَسَاءَ، وَ الْمَنْزِلَةُ الْوُسْطَى دَقِيقَةُ الْوَزْنِ، حَادَّةُ اللِّسَانِ، صَعْبَةُ التَّرَقِّي إِلَّا عَلَى الْحَاذِقِ الذَّكِيِّ" (الطوسيّ 1414: 588/1)، وكلامه (عليه السلام) كذلك مِحنةٌ على العلماء الذين أقبلوا على شرحه وبيان مقاصده، وذلك لتمكُّنه من وجوه الفصاحة والبيان، ولاحتوائِه روائعَ الحكم وعظيم المعارف، حتّى قالَ التابعيُّ عامر الشّعبيّ (ت100هـ): "تكلَّمَ أميرُ المؤمنين عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهنَّ ارتجالاً، فقأْنَ عيونَ البلاغةِ وأيْتَمْنَ جواهرَ الحكمةِ، وقَطَعْنَ جميعَ الأنامِ عنْ اللّحاقِ بواحدةٍ منهنَّ..." (الصدوق د.ت:420)؛ ولذلك وجبَ على القاصدِ لشرحِ نهج البلاغة أن يكون مُلمَّاً بشتى العلوم وأنواع الفنون والمعارف؛ لِيتسنّى له إدراك معنى المعنى في كلام الإمام عليّ (عليه السلام)، ومن الذين توافرت فيهم تلك الشروط هو الشيخ كَمَال الدين مَيْثَم بن عليّ البَحرَانيّ (ت679هـ)، فقد كان فقيهاً أُصوليّاً مُحَدِّثاً بلاغيَّاً بارعاً، وأكسبته هذه العلوم القدرةَ على الاستدلال والتأويل، فكان شرحُه لنهج البلاغة متكاملَ الجوانب غزيرَ العلوم والمعارف؛ وهذا ما دفعني للبحث فيه، فضلاً عن أنَّ هذا الكتاب لم ينل العناية الكافية من الدرس والبحث، ولمّا كانت السمة الظاهرة في هذا الكتاب هي السعي للكشف عن مقاصد أمير المؤمنين (عليه السلام) كان من المُناسب جداً أنْ نعقدَ مقاربة تداوليَّة لآليَّات الشيخ البحرانيّ في الاستدلال، مع ما انتجه مشروع الفيلسوف الأمريكيّ (بول غرايس)، إذْ كانت نظريته في المعنى تتمحور حول الطريقة التي يمكننا فيها استجلاءَ معنى المتكلّم.

ولأنَّ طبيعة البحث وشروطه لا تتيحُ لنا استيفاء جميع آراء البحرانيّ في شرحه الواسع، اقتصرنا على نماذج مختارة يمكننا بواسطتها أنْ نتصورَ طبيعة منهج الشيخ وآليَّاته الاستدلاليَّة وقدرته على الكشف عن مُراد المتكلّم.

مُدَوَّنَةُ البَحْثِ ومُؤَلِّفُهَا:

يعدُّ شرح نهج البلاغة للبحرانيّ أحد أهم شروح نهج البلاغة وأكثرها قيمة علميَّة؛ لسعته وتعدد المعارف التي تضمَّنها، وتُذكرُ للبحرانيِّ ثلاثة شروح لنهج البلاغة، الأول: هو الشرح الكبير وقد طُبعَ بعنوان: شرح نهج البلاغة، وهو مدوّنة بحثنا، وقيل في وصفه: إنَّه كتابٌ ممتعٌ مشحونٌ بدقائق العلمِ والحكمة، وهو كتاب كبير يتألف من خمسة مجلدات، سار فيه على ترتيب الشريف الرضيّ لنهج البلاغة، والثاني: هو الشرح الصغير وهو تلخيصٌ للشرح الكبير، أمَّا الثالث فقد ذكرتَهُ المصادر ولم يُعثَر عليه، ويُسمّى الشرح الوسيط. (يُنظر: البحرانيّ 1379هـ:1/ز–ح).

أمَّا مؤلِّف الكتاب فهو الشيخ كَمَالِ الدين مَيْثَم بِن عليّ بن مَيثم البَحرَانيّ، المولود سنة (636هـ) في إحدى قُرى البحرين، وقيلَ: كلُّ ميثم بكسر الميم الأولى إلا ميثم البحرانيّ فإنه بفتح الميم (يُنظر: البحرانيّ 1405 هـ: 7) وهو من أكابر علماء الإماميَّة، وكان متكلّماً فقيهاً مُحَدِّثاً لغويّاً بلاغيّاً متميزاً، من أبرز أساتذته عليّ بن سليمان بن يحيى البحرانيّ (ت670هـ)، والخواجة نصير الدين الطوسيّ (ت672هـ)، والشيخ أبو السعادات الأصفهانيّ (ت635هـ)، والمحقق الحليّ (ت676هـ)، أما أبرز تلامذته فمنهم العلامة الحسن ابن المُطهر (ت726هـ)، وابن طاووس الحليّ (ت693هـ)، وغيرهم، وقد اختلِفَ في سنة وفاته، فقيل إنّ وفاته كانت سنة (ت679هـ) وقيل سنة (699هـ)، وترك الشيخ البحرانيّ الكثير من المؤلفات، أبرزها شروحه لنهج البلاغة، وقواعد المرام في علم الكلام، ومنهاج العارفين في شرح كلام أمير المؤمنين، وأصول البلاغة أو تجريد البلاغة. (ينظر: البحراني 1433: 23–30، واللّجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق1426هـ: 2/418–419).

معنى المتكلّم عند غرايس:

يمثّل مفهوم (معنى المتكلّم Speaker's meaning) صفوةَ ما أنتجه مشروع الفيلسوف الأمريكيّ (بول غرايس)[1]، وكانت الانطلاقة الأولى لذلك المشروع تتمثل في تنبه غرايس إلى "أنَّ الناس في

([1]) ولد هربرت بول جرايس في برمنجهام بإنجلترا في الخامس عشر من عام ١٩١٣، وعمل أستاذا في جامعة أكسفورد من عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٦٧ باستثناء الفترة التي قضاها في الخدمة العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٦٧ انتقل إلى جامعة كاليفورنيا بيركلي، وظل يعمل بها حتى بلغ سن التقاعد في عام ١٩٧٩ ، ولكنه ظل يواصل التدريس حتى عام ١٩٨٦ ، ووافته المنية في بيركلي سنة ١٩٨٨، وفي منزلة بول غرايس في دراسة المعنى يقول الدكتور صلاح إسماعيل: ولست أعرف فيلسوفاً معاصراً كرس جلّ جهده الفلسفي لمفهوم المعنى، وما يدور في فلكه من مفاهيم

ISSN (Print) :2518-9182 ISSN(Online)2708-1761

حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كلَّ همه إيضاح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد" (نحلة، 2011: 33–34)، ومن هذه النقطة شرع غرايس في مقالته الأولى سنة (1957م) بوضع نظريته في المعنى، وبدأ أولاً بتقسيم المعنى إلى نوعين رئيسين، وهما: (المعنى الطبيعيَ والمعنى غير الطبيعيّ) فـ"المعنى الطبيعيّ (natural meaning) هو ما دُلَّ عليه بطريقة غير مقصودة، فهو المعنى الذي تملكه الأشياء في الطبيعة دون تواضع أو اصطلاح، ومثاله البقع (spots) تدلُّ على مرض الحصبة، والمعنى غير الطبيعيّ (non-natural meaning) هو ما قصدَ شخصٌ ما الدلالةَ عليه، فهو معنى قصديّ اصطلاحيّ، مثل الدلالة على امتلاء الحافلة بطرق الجرس ثلاث مرات، وهذا المعنى غير الطبيعيّ هو الذي يقع فيه التواصل" (محمود،2022: 164–165)، كما ميَّز غرايس لاحقاً بين مستويات ثلاثة للمعنى غير الطبيعيّ، وهي: (المعنى اللازمانيّ timeless) وهو المعنى اللغويّ الحرفيّ بمعزل عن السياقات والمقاصد، و(المعنى اللازماني التطبيقيّ applied timeless) وهو المعنى الذي يتحدد ويرتبط بإحدى الدلالات اللغوية الحرفية، واخيراً (معنى المتكلم في مناسبة معينة utterer's occasion - meaning) أو (معنى المتكلم) اختصاراً، وهو أهم أنواع المعنى عند غرايس، وهو ما يريد المتكلم أن يوصله إلى السامع مما وراء البنية الدلالية للجملة المنطوقة.(ينظر: الخليفة،2013: 21–26، وهوانغ 2020: 413).

تبيَّن أنَّ غرايس قد توصل إلى أنَّ الكلام قد يكون مباشراً تارةً، بحيث يتحدد المعنى بالنظر إلى القول دون الحاجة إلى الرجوع إلى السياقات الحاليَّة، وقد يكون غير مباشر تارةً أُخرى، وذلك يعني أنَّ المتكلم قد قال شيئاً، وقصد شيئاً آخر، وهذا ما عناه غرايس في مصطلحه: معنى المتكلم.

وفي ضوء ما سبق فإنَّه يتوجب على غرايس أن يُفسِّر كيف أنَّ المتكلم قد يقول شيئاً، ويقصد شيئاً آخر؟ ثم كيف يكون مُمكناً أيضاً أن يسمع المتلقي شيئاً ويفهم شيئاً آخر؟ (ينظر: نحلة 2011: 34) وللإجابة على ذلك فقد "افترض غرايس وجود مبدأ عام متفق عليه ضمنياً بين المتحاورين، ألا وهو (**مبدأ التعاون cooperative principle**)، وخلاصته: اجعل مساهمتك في الحوار حسب ما يُرجى لها، موافقةً لأهداف الحوار ووجهته"، (محمود 2022: 165، وينظر: بلانشيه 2007: 84)، يفهم من ذلك

أخرى، مثلما فعل الفيلسوف الإنجليزي بول جرايس إلى درجة أننا نستطيع أن نسميه بحق فيلسوف المعنى. ينظر: (إسماعيل 2005: 13، 17).

أنَّ عمليَّة التواصل بين منتج الخطاب ومتلقيه ليست عمليَّة اعتباطية، بل هي خاضعة لمجموعة من الأحكام والقواعد المتوافق عليها سلفاً والكامنة في الكفاءة اللُّغويّة لطرفي الخطاب.

وفرّع غرايس عن مبدأ التعاون أربع قواعد تحكم الحوار، وهي:

1. **قاعدة الكم (Maxim of quantity)**: تعدُّ حَدّاً دلاليّاً القصد منه أن نقولَ ما هو ضروريٌّ بالضبط بلا زيادة أو نقص (ينظر: بلانشيه 2007: 84، وأدراوي 2011: 99).

2. **قاعدة الكيف (Maxim quality)**: تستوجبُ أن تكون مساهمتنا في الحوار صادقة مدعومة بالحُجّة (ينظر: موشلر و ريبول 2010: 215، وأرمينكو 1986: 54).

3. **قاعدة المناسبة (Maxim relevance)**: تقتضي أن تكون مساهمتنا الحواريّة مناسبة لموضوع المحادثة (ينظر: يول 2010: 68، و الشهري2004: 96).

4. **قاعدة الجهة أو الكيفية أو الطريقة (Maxim of manner)**: إذ بموجبها ينبغي أن يكون كلامنا واضحاً محدداً مرتباً موجزاً (ينظر: موشلر وريبول 2010: 215، وأدراوي 2011: 100).

ومن الوهم أن يتمّ التنظير لسلوك تفاعليّ يمكنه الالتزام بالقواعد السابقة بحذافيرها، بل إنَّ النظرية الغرايسيَّة ينبغي فهمها على نحو آخر (ينظر: موشلر وريبول 2010: 215، ومانغونو 2008: 34)، إذْ إنَّ أغلب العمليات الحواريَّة في الاستعمال لا تلتزم بهذه المعايير؛ ولذلك فإنَّ غرايس افترض هذه المعايير بوصفها منطلقات حواريَّة متعارف عليها بين المتحاورين، ومتى ما خرق أحدُ الطرفين إحدى تلك القواعد، وجب -انطلاقاً من مبدأ التعاون- على الطرف الآخر أنْ يعتقد أنَّ المُتكلّم إنَّما خرق تلك القاعدة لغاية مقصودة، وأنَّه لا يعني ما قاله حرفيّاً، وحينها وجب على المتلقي ألّا يحمل الكلام على ظاهره، بل عليه الاهتداء إلى المعنى المتضمن الذي يقصده المتكلم، وهو ما أطلق عليه غرايس (معنى المتكلم).

آليَّاتُ الكشفِ عَنْ مَعْنَى المُتكلِّمِ عِندَ البحرانيّ:

إنَّ مطالعةَ شرح نهج البلاغة للشيخ ميثم البحرانيّ تُفصحُ عن مدى براعته الفائقة في الكشف عن مقاصد الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبه وحكمه ووصاياه وسائر كلامه، وكأنَّ الشيخَ ما اجتهد في تحصيل علومه ومعارفه وفنونه إلا لِيودِعَها في هذا الكتاب الفريد، فكما مرَّ أنَّه كان متكلماً فقيهاً لغويّاً بلاغيّاً حاذقاً، وقد ساعده كلُّ ذلك في خوض غمار هذه المهمة الثقيلة، ألا وهي شرح كلام سيد البلاغة وإمام الفصاحة علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ISSN (Print) :2518-9182 ISSN(Online)2708-1761

لقد وظّفَ البحرانيُّ معرفته الفقهية والكلاميّة في بسط البحث بكلّ ما له علاقة بتلك المعارف في كلام الإمام علي (عليه السلام)، فقد كان شرح نهج البلاغة للبحرانيّ ميداناً رحباً للآراء الكلاميّة على وجه الخصوص، لا سيما ما يتعلق بمسألة الخلافة، أمّا ذائقته الأدبيَّة فقد انعكست على أسلوبه في التأليف بصورة واضحة، فقد تميزت عبارته بالدقة والوضوح والسهولة، وأسعفته علومه اللُّغويَّة في الكشف عن معاني الألفاظ الغريبة في نهج البلاغة، فبعد ذكر كلام الإمام عليّ (عليه السلام) وقبل كلّ شيء يستعرض الألفاظ الغريبة ويفسر معانيها، وهذا الأمر يعدُّ من أركان منهجه، فهو مُطّرِد من أول الكتاب إلى آخره.

ومع سعة المباحث اللُّغويَّة والكلاميَّة وحتى التاريخيَّة في مدوّنة بحثنا وقيمتها العلميَّة، إلّا أنَّها لا تُداني الجهود البلاغيَّة في هذه المدوَّنة، فكانت الإحاطةُ البلاغيَّة للشيخ البحرانيّ السبيلَ الأظهر للكشف عن المقاصد في نهج البلاغة، وجرى التركيز بوجه خاص على مباحث التشبيه والاستعارة والكناية.

من أمثلة ذلك شرحه لقول الإمام علي (عليه السلام) : **"قلبُ الأحمقِ في فمِهِ، ولسانُ العاقلِ في قلبهِ"** (البحرانيّ 1379هـ: 263/5)، إذ يقول البحرانيُّ: "أرادَ أنّ ما يتصوّره الأحمق هو في فِيْهِ، أي: يبرزُ على لسانه من غير فِكر، وأمّا نطقُ العاقلِ فمخزونٌ في عَقله لا يخرجُ إلاّ عن رويَّة صادقة، ولفظُ القلب في الأوَّل مجاز فيما يبرز من تصوّراته في ألفاظه، ولفظُ اللِّسان مجازٌ في ألفاظِهِ الذهنيّة" (البحرانيّ 1379هـ: 263/5–264). إنَّ حملَ قوله (عليه السلام) على ظاهره لا يتوافق والحقائق العلميَّة، لأنَّ فيه خرقاً لقاعدة الكيف التي مرَّ بيانها، ولذلك فإنَّ الشيخ ميثم البحرانيّ لم يناقش السياق اللفظيّ لهذه القَوْلَة مطلقاً، وانحاز إلى تأويلها وحملها – انطلاقاً من مبدأ التعاون– على خلاف الظاهر، فالقصد الذي تتضمنه هذه القولة عظيمٌ جداً، ومقتضاه كما فهم البحرانيُّ: أنَّه ينبغي على العاقل ألّا ينطق إلّا عن تفكّر وتعقّل، وبخلاف ذلك فإنَّ التعجّل بالنطق ضربٌ من الحمق، والذي قاد الشيخ إلى هذا الفهم هو إحاطته بمبدأ الإمام علي (عليه السلام) في الكلام واللسان، فمسألة التفكّر بالكلام قبل نطقه وأنَّ اللسانَ دالٌّ على الحكمة أو الجهل شغلت مساحة واسعة في خطابه (عليه السلام)، من ذلك قوله: **"المَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ"** (البحرانيّ 1379هـ: 327/5)، و يُعلِّق الشيخ ميثم البحرانيّ على هذا القول أيضاً؛ ليبرهنَ مرَّة أُخرى على قدرته وبراعته في جَلاء المعاني الكامنة في ثنايا كلام سيِّد البُلغاء (عليه السلام) ، فيقولُ: "أي حاله مستورة في عدم نطقه فحذف المضاف للعلم به، وتحت لسانه: كناية عن سكوته، وذلك أنّ مقداره بمقدار عقله ومقدار عقله يعرف من مقدار كلامه لدلالته عليه فإذا تكلَّم

ISSN (Print) :2518-9182 ISSN(Online)2708-1761

بكلام الحكماء ظهر كونه حكيماً، أو بكلام السفهاء عُرِفَ كونه منهم و ما بين المرتبتين بالنسبة" (البحرانيّ 1379هـ: 327/5). من البديهي أنَّ المتلقي لقول الإمام علي (عليه السلام) لا يحمله على معناه الحرفيّ؛ لأنَّ دلالته الحرفية مستحيلة عقلاً؛ ولذا عمد البحرانيُّ إلى انتزاع المعاني المضمرة في هذا القول مستعيناً بكفاءته البلاغيَّة، فشرعَ أولاً بتقدير المحذوف وإظهاره ليكتمل عنده السياق اللفظيّ فيكون على النحو الآتي: (حالُ المَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ)، وبعد أنْ تجلَّى السياق اللفظي أمامه كاملاً، راحَ يبيّنُ كيف أنَّ حالَ المرءِ مخبوءٌ تحت لسانه؟ وليُخرِجَ القولَ من المعنى الحرفيّ –المُحال عقلاً– إلى المعنى المقصود، إذْ ذهبَ إلى أنَّ هذا القول هو كناية عن السكوت، فمتى ما كان الإنسانُ ساكتاً لم يُعرف حاله، أَ حكيماً كان أم سفيهاً؟ فإذا نطقَ عُلِمَ حالُهُ، وهذا يدلُ على أنَّ الإمامَ علياً (عليه السلام) لا يحسبُ أنَّ هيأة الإنسان الجسمانيَّة دالَّةٌ على قدرِهِ، بل قدرُ الإنسانِ عنده كامنٌ بما يشتملُ عليه عقله، وأيسرُ سبيل للكشف عن مضمرات العقل هو اللسان.

ومن النصوص العلويَّة التي اجتهد الشيخ مَيثمُ البحرانيُّ في الكشف عن مقاصدها، هو ذلك القول الرائع الذي يصف فيه الإمام (عليه السلام) حاله مع الناس في زمانه:

"طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَ أَحْمَى مَوَاسِمَهُ[2] **يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ وَ آذَانٍ صُمٍّ، وَ أَلْسِنَةٍ بُكْمٍ"** (البحرانيّ 1379هـ: 40/3). استند الشيخُ البحرانيُّ مجدداً –وكما في سائر شرحه– إلى معرفته الراسخة في علم البلاغة للوصول إلى مُراد الإمام (عليه السلام)، ومما لا ريبَ فيه أنَّ علم البلاغة هو السبيل الأقوم لإنجاز هذه المهمة، فمن أبرز مهام علم البلاغة أنَّه يبحث عن مقاصد المتكلمين، أو عن معنى المعنى كما نصَّ الجرجانيُّ بقوله: "معنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر" (الجرجانيّ، د.ت: 263)؛ لذلك تناولَ الشيخُ البحرانيُّ النصَّ السابقَ من جوانبه البلاغيَّة فقال: "طبيب دوّار بطبّه: كنايةٌ عن نفسه، كنايةٌ بالمستعار فإنّه طبيب مرضى الجهل ورذائل الأخلاق، و كنّى بدورانه بطبّه تعرّضه لعلاج الجهّال من دائهم و نصب نفسه لذلك، واستعار لفظ المراهم لما عنده من العلوم و مكارم الأخلاق، ولفظ المواسم لما يتمكّن منه من إصلاح من لا ينفع فيه الموعظة والتعليم بالجلد وسائر الحدود، فهو كالطبيب الكامل الذي يملك المراهم والأدوية والمكاوي لمن لا ينفع فيه المراهم، يضع كلّ واحد من أدويته و مواسمه حيث الحاجة إليه من

(2) لقد فسر الشيخ ميثم البحرانيُّ المواسم بأنها المسامير التي تكوي، ينظر: (البحرانيّ 1379هـ: 42/3).

ISSN (Print) :2518-9182 ISSN(Online)2708-1761

قلوب عمي يفتح عماها بإعدادها لقبول أنوار العلم والهداية لسلوك سبيل الله، ومن آذان صمٍّ يعدّها لقبول المواعظ، وتجوّز بلفظ الصمم في عدم انتفاع النفس بالموعظة من جهتها فهي كالصمّاء إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه، إذْ كان الصمم يستلزم ذلك العدم، من ألسنة بكم يطلقها بذكر الله والحكمة، وأطلق لفظ البكم مجازاً في عدم المطلوب منها بوجودها وهو التكلّم بما ينبغي فإنّها لفقدها ذلك المطلوب كالبكم" (البحرانيّ 1379هـ: 42/3).

إنَّ قراءة قول الإمام علي (عليه السلام) بمعزل عن السياقات الحاليَّة ينتج عنها فهم بعيدٌ عن حال الإمام (عليه السلام) وواقعه، فهو في الواقع ليسَ طبيباً ولا يقوم بالأفعال الطبيَّة التي ذكرها، لكنه ببديع بلاغته وعظيم براعته وصف حاله بأدقِ وصف وأبلغه، دونما تصريح بذلك الحال، وجاءَ الشيخُ ميثم ليُعملَ آليَّاته الاستدلاليَّة بغية إبانة معنى المتكلّم، فحدد أولاً المقصود بالطبيب، ورأى أنَّ الإمام (عليه السلام) كنّى بذلك عن نفسه، فإذا كان هو القائم بمهمَّةِ مُنَافَحَةِ الجهل وسوء الخلق، وهذه أمراضٌ كما عبر عنها القرآن بقوله: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) {البقرة:10} ، فلا شكَّ أنه بمثابة الطبيب المعالج لتلك الأمراض، وبعد أنْ حدد الشيخُ المعنيَّ بالطبيب، شرعَ ببيان ما ذُكر من كلامٍ واصفٍ لعمل ذلك الطبيب، فأوّلَ كلَّ تلك الأوصاف الواردة في النصّ بما يتسق مع ما كان عليه الإمام (عليه السلام) من تمكنٍ في مواجهة تلك الأمراض الاجتماعيّة ومكافحتها، فقرر الشيخُ أنَّ تلك الأوصاف كلّها استعارات جِيءَ بها لأوجه الشبه بينها وبين ما عليه الإمام (عليه السلام) من حال، وتلك الاستعارات صوَّرَت حالَ الإمام علي (عليه السلام) بطريقة إبداعيَّة مؤثرة في نفوس المُتلقينَ، إذْ توارت المعاني المُرادة خلف تلك الاستعارات، وعلى المُتلقي أنْ يُشغلَ فكره لإدراك معنى المتكلم، ولا شكَّ أنَّ في خفاء المعنى المقصود والتفكّر في تحصيله إثارةٌ للذهن ومتعةٌ للنفس؛ ولذلك فقد أحسنَ القاضي الجرجانيُّ حين عدَّ الاستعارة أحد أعمدة الكلام فقال: "فأمَّا الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام، وعليها المُعوَّل في التوسع والتصرف، وبها يُتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر" (عبد العزيز الجرجانيّ 1966: 428).

ومن النصوص العلويَّة التي كانت بها حاجة إلى تأويلات الشيخ البحرانيّ وتفسيراته قوله (عليه السلام) مخاطباً المتقاعسين عن أمر الجهاد في سبيل الله: "**ما لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ، وَ أَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ؟**" (البحرانيّ 1379هـ: 40/3)، وقفَ البحرانيُّ إزاء هاتين العبارتين المتقابلتين مَليَّاً ليتبينَ معناهما فقال: "شبّههم في عدم انتفاعهم بالعقول وعدم تحريك المواعظ والتذكير لهم بالجمادات الخالية من الأرواح ... وقوله: و أرواحاً بلا أشباح، قيل فيه وجوه، الأوّل: أنّ ذلك مع ما قبله إشارة إلى نقصانهم أي أنّ

منهم من هو شبح بلا روح كما سبق، ومن كان له روح و فهم فلا قوّة له بأمر الحرب، ولا نهضة معه فهو كروح خلت عن بدن، فهم في طريق تفريط و إفراط، الثاني: قيل كنّى بذلك عن عدم نهضة بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما لا يقوم البدن بدون الروح ولا الروح بدون البدن، الثالث: قال بعضهم: أراد أنّهم إن خافوا ذهلت عقولهم وطارت ألبابهم فكانوا كالأجسام بلا أرواح وإن أمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم وضيّعوا الفرص ومصالح الإسلام حتّى كأنّهم في ذلك أرواح لا تعلّق لها بما يحتاج الأجسام إليه" (البحرانيّ 1379هـ: 3/43–44)، لطالما أطلق الشيخ البحرانيُّ لفظ التشبيه وقصد به الاستعارة في كتابه هذا، فالاستعارة كما هو معلوم: تشبيه حُذف أحد طرفيه، وبناء على ذلك فإنَّ الشيخ يقصدُ أنَّ وصف الإمام (عليه السلام) لمخاطبيه بأنهم: أشباحٌ بلا أرواح، من باب الاستعارة، ووجه الشبه بينهم وبين الجمادات أنَّ كلا الطرفين فاقدٌ لمَلَكةِ العقلِ، وينبغي التنبّه إلى أنَّ لفظة الأشباح تدلُّ على ما تَبَدَّى لك وأمكنك رؤيته بالعين الباصرة، لا كما تدلُّ عليه اليوم، قال ابن منظور: "الشَّبَحُ: ما بدا لك شخصُه من الناس وغيرهم من الخلق ... وأسماء الأشباح، وهو ما أدركته الرؤية والحس" (ابن منظور، د.ت: 494/2).

وإذا كان وصف الإمام (عليه السلام) لهم بأنهم أشباحٌ بلا أرواح يمكن إدراكه بسهولة ويسر، لكثرة ورود هذا المعنى أو ما يقرب منه في كلامه (عليه السلام) بل حتى في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ((كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ)) {المنافقون:4}، فإنَّ المعنى الغريب والمغاير للمألوف هو وصفه لهم بأنهم: أرواحٌ بلا أشباح، وإنَّ الوقوف على تأويل معنى هذه العبارة يتطلَّب باحثاً أريباً محيطاً بمقالات الإمام علي (عليه السلام)، ليكوِّنَ من مجموعها سياقَ حالٍ يُفَسِّرُ على هَدْيِهِ ما أُشكِل تأويله واستعصى فهمُه، وذلك ما لمسناه عند الشيخ البحرانيّ منذ أنْ طالعنا مقدمته الطويلة الدقيقة التي ضمنها شرحاً مستفيضاً عن الإمام عليّ وفضائله وبلاغته وخطبه وأغراضه من الخطب، فضلاً عمَّا أورده الشيخ في مقدمته من مباحث لفظيَّة ودلاليَّة وبلاغيَّة، والأهم هو بحثه الفريد في تلك المقدمة عن الخطابة وأصولها ومُحسِّناتها وأقسامها وشروطها، فتلك الكفاءة المعرفيَّة الواسعة التي أظهرها الشيخ في شرحه لنهج البلاغة وسائر مدوناته الأُخرى، تجعلنا نقرأ رأيه مطمئنين لصوابه ودقّته، وبالعودِ إلى كلام الشيخ السابق عن قول الإمام: (وأرواحاً بلا أشباح)، نجدُ أنَّه اقترحَ تأويلات ثلاثة يمكن أن يمثل أحدها مُراد الإمام (عليه السلام) بقولته هذه، ومعنى المتكلّم الذي استخلصهُ البحرانيّ في احتماله الأول: أنَّ الإمام (عليه السلام) قصَدَ وصفهم بالنُّقصان، فهُم بين إفراطٍ أو تفريطٍ، بين من ينهض إلى الحرب بجسده فقط متثاقلاً عنها

ISSN (Print) :2518-9182 ISSN(Online)2708-1761

ولا رغبة له فيها، وبين من ينهض راغباً فيها ولكنَّه ممن تعوزه القوّة الجسمانية لخوض غمارها. وأمَّا الاحتمال الثاني الذي نصَّ عليه الشيخ: فإنَّه يرى أنَّ المخاطبينَ قسمان، القسم الأول منهم هم أصحاب العقول الذين تنقصهم القوّة البدنيّة، والقسم الآخر هم أولو الأجساد الشديدة لكنَّ عقولهم ناقصة، وفي الموقف الذي يحتِّم عليهم أنْ يتعاضدوا فيكمل بعضُهم نقصَ بعضٍ تجدهم متفرقين متناحرين، فمعنى المتكلّم هنا أنَّ الإمام (عليه السلام) أنكر عليهم تفرقهم وتشتتهم عن الحق، والذي يعضّد هذا الاحتمال أنَّ هذا المعنى ورد كثيراً في خطاب الإمام عليّ (عليه السلام) من ذلك قوله: "فَيَا عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ، مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ" (البحرانيّ 1379هـ: 30/2)، وأمّا الاحتمال الثالث فإنَّ معنى المتكلم فيه أنهم إمَّا يتصفون بالجُبن والخوف من الأعداء، من آمن منهم فإنه يتصفُ بالجهل بمصلحته ومصلحة دينه.

ومن المبادئ الحواريَّة التي أسَّسَ لها الإمامُ عليّ (عليه السلام)، وأقرّها الشيخ البحرانيّ ما نجده في قوله (عليه السلام) حين قِيلَ له صف لنا العاقلَ فقالَ: "**هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ**، فقيل: فصفْ لنا الجاهلَ، فقال: **قَدْ فعلتُ**" (البحرانيّ 1379هـ: 360/5)، المبدأ الحواريّ الذي قصدناه هنا هو أنَّ الإمام (عليه السلام) أطلقَ حُكماً ظاهراً مقصوداً يُستفاد منه في الوقت ذاته حكماً مُضمَراً مُخالفاً للحكم المذكور، ولم يكن عسيراً على الشيخِ البحرانيّ إدراك مقصد الإمام عليّ (عليه السلام) في قوله السابق؛ لأنَّ الشيخَ أصوليٌّ بارعٌ كما مرَّ بنا، ولِأنَّ المبدأ الذي أقرَّه الإمام (عليه السلام) أُشبِعَ بحثاً في مدوَّنات علماء الأصول تحت عنوان (مفهوم المخالفة)، وقد عرّفه الشوكانيُّ بقوله: "وهو حيث يكون المسكوت عنه مخالفاً للمذكور عنه في الحكم، إثباتاً ونفياً، فيثبت للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به، ويُسمى: دليل الخطاب؛ لأنَّ دليله من جنس الخطاب، أو لأنَّ الخطابَ دالٌّ عليه" (الشوكانيّ 2000: 766، وينظر: الخليفة 2013: 220) وذلك عين ما فهمه البحرانيُّ إذ رأى أنَّ الإمامَ (عليه السلام) "عرّفَ العاقلَ بخاصَّة من خواصِّه، ولمّا كان الجاهلُ عديمَ مَلَكَة العاقل كان تعريفه بما يقابل خاصّة العاقل تعريفاً بالمناسب وهو خاصّة أيضاً من خواصِّ الجاهل" (البحرانيّ 1379هـ: 360/5)، وهنا تتجلّى إحدى أهم مُنطلقات غرايس في نظريته التداوليَّة (الاستلزام الحواريّ)، وهو أنَّ المتكلم أحياناً قد يعني أكثر مما يقول، من خلال خرق قاعدة الكمِّ التي مرَّ وصفها، فالإمام (عليه السلام) في قوله السابق أعرضَ عن وصف الجاهل لفظيّاً، لأنّه قد وصفه ضمناً حين وصف العاقل، وفي الموقف الذي كان ينبغي على المتلقي أنْ يكون مُدركاً عارفاً بأُصول الحوار لِيفهمَ الحُكمَ المذكورَ ويستنبطَ الحكمَ المسكوت عنه في

الوقت ذاته، فإنَّه لم يكن كذلك، بل كان جاهلاً بهذا المبدأ الحواريّ، فأرادَ الإمام (عليه السلام) أن ينبهه على ذلك، فلم يصف الجاهل كما طُلبَ منه، واكتفى بقوله: قد فعلتُ، ليفهمَ المُتلقي أنَّ الإمام (عليه السلام) تعمَّدَ تركَ وصف الجاهل معوّلاً على كفاءَة المتلقي وقدرته على فهم معنى المُتكلّم.

ومن المواطن التي أعرض فيها الشيخ البحرانيّ عن الدلالة الظاهرة للقول ولم يلتفت إليها، وراحَ يُفتِّشُ عمَّا يستلزمه القول من معانٍ وإشارات، هو تعليقه على قول الإمام علي (عليه السلام) مُخاطباً محاربيه في واقعة الجمل: "**مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ**" (البحرانيّ 1379هـ: 270/1)، فالشيخ في شرحه لهذا القول لم يناقش دلالة الكلام، بل انصرفَ مباشرة إلى ما يستلزمه الخطاب، فعَدَّ القَولَ "إشارة إلى أنّه (عليه السّلام) كان يعلم عاقبة أمرهم إمَّا باطلاع الرسول (صلى الله عليه وآله) على أنّهم بعد بيعتهم له يغدرون به، أو لأنَّه كان يلوحُ له من حركاتهم وأحوالهم بحسب فراسته الصائبة فيهم كما أشارَ إليه بقوله: وأتوسّمكم بِحِلِيَة المُغترِّين؛ وذلك لأنَّه فهم أنّهم من أهل الغِرَّة وقبول الباطل عن أدنى شبهة بما لاحَ له من صفاتهم الدالَّة على ذلك، وكان علمه بذلك منهم مستلزماً لعلمه بغدرهم بعهده و نقضهم لبيعته فكان ينتظر ذلك منهم" (البحرانيّ 1379هـ: 273/1). فظاهر قول الإمام (عليه السلام) يدلُّ على أنَّه كان يترقب غدرهم ويتوقع غِرَّتهم أي غفلتهم، هذا ما ذكره ابن أبي الحديد ولم يزد عليه في شرحه لنهج البلاغة (ابن أبي الحديد 1959: 209/1)، لكنَّ البحرانيَّ لم يركّز على هذا المعنى لوضوحه، وكانت عنايته بأنَّ يستدلَّ بهذا الكلام على علم الإمام (عليه السلام) وقُربه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحيث أخبره بما سيصدر عن هؤلاء القوم، وأيضاً الاستدلال على إيمانه وقربه من الله تعالى؛ وذلك لفراسته وقوّة بصيرته، وقد صرّحَ بذلك في تتمة حديثه حيث قال: "وأنّه بحسب ذلك أُفيضَ على بصر بصيرته نور معرفة أحوالهم وما تؤول إليه عاقبة أمرهم كما قال النبيُّ (صلى الله عليه وآله): المؤمنُ ينظرُ بنورِ الله" (البحرانيّ 1379هـ: 273/1)، وهذا الاستدلال يكشف لنا عن براعة الشيخ البحرانيّ وقدرته على استنباط مقاصد المتكلّم ومعنى المعنى، ويبرهن كيف أنَّ المتكلم قد يعني أكثر مما يقول.

نتائج البحث:

1. إنَّ سعةَ معارف الشيخ ميثم البحرانيّ مكَّنته من النظر في كلام الإمام علي (عليه السلام) من جميع جوانبه، وتُعدُّ معرفته البلاغيَّة أبرزَ وسيلة وظَّفها الشيخ للكشف عن معنى المُتكلِّم في نهج البلاغة.

ISSN (Print) :2518-9182 ISSN(Online)2708-1761

2. لم ينشغل البحرانيُّ كثيراً في البناء اللفظيّ لكلام الإمام عليّ (عليه السلام) سوى تفسيره للألفاظ الغريبة، فلم نجده مُهتمّاً بالجوانبِ النحويَّة والصرفيَّة، بل كانَ جهده مُنصبَّاً على الاستدلال على مقاصد الإمام (عليه السلام)، وتأويل ما أشكلَ من كلامه في الظاهر بوساطة حملهِ على الكنايةِ أو الاستعارة، فضلاً عن تبيان السياقات الحاليّة المتعلّقة بذلك الكلام.

3. إنَّ الطريقة التي انتهجها الشيخ البحرانيُّ للكشف عن معنى المتكلّم تلتقي في كثيرٍ من جوانبها مع الأبعاد والمُنطلقات التي انتجتها بحوث الفيلسوف الأمريكيّ (بول غرايس)، لا سيما اعتقاده في مواطن كثيرة أنَّ حمل كلام الإمام عليّ (عليه السلام) على ظاهره ليس مقبولاً، وهذا إيمانٌ منه بأنَّ الإمامَ لا يقصدُ ما يعنيه ظاهرُ قولِه في تلك المواطن؛ ولذلك يلجأُ الشيخُ إلى البحث عن المعاني الاستلزاميَّة والضمنيَّة، وهذا هو عين ما قصده غرايس في حديثِهِ عن مبدأ التعاون، والقواعد التي تحكم الحوار، والمعاني الناتجة عن خرق تلك القواعد.

المصادر والمراجع:

1- ابن أبي الحديد، عزّ الدين عبد الحميد ت656هـ (1959)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشُركاه، القاهرة.

2- أدراوي، العيّاشي (2011)، الاستلزام الحواري في التداول اللسانيّ، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر.

3- أرمينكو، فرانسواو (1986)، المقاربة التداوليَّة، ترجمة: د. سعيد علّوش، دار الإنماء القوميّ، الرباط.

4- إسماعيل، د. صلاح (2005)، النظريَّة القصديَّة في المعنى عند جرايس (بحث)، مجلة حوليَّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة، الرسالة (230)، الحولية (25)، مجلس النشر العلميّ، الكويت.

5- البحرانيّ، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم ت679هـ (1433هـ)، أُصول البلاغة تحقيق اللجنة العلميَّة في مؤسسة الإمام الصادق،ط1، نشر مؤسسة الإمام الصادق، قم.

- (1379هـ) شرح نهج البلاغة، عني بتصحيحه عدة من الأفاضل وقُوبلَ بعدَّة نسخ موثوق بها، ط1، مطبعة الحيدري–منشورات دفتر نشر الكتاب، إيران.

- (1405هـ)قواعد المرام في علم الكلام، تحقيق: السيد أحمد الحسينيّ، ط2، مطبعة الصدر، نشر مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، قم–إيران.

6- بلانشيه، فليب (2007)، التداوليَّة من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا–اللاذقيَّة.

7- الجرجانيّ، الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ت471هـ (د.ت)، دلائل الإعجاز، قرأه وعلَّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

8- الخليفة، د. هشام عبد الله (2013)، نظريَّة التلويح الحواريّ، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان.

9- الشهريّ، عبد الهادي بن ظافر 2004، استراتيجيّات الخطاب مقاربة تداوليَّة لغويَّة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان.

10- الشوكانيّ، الإمام محمد بن عليّ ت1250هـ (2000)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق وتعليق أبي حفص سامي بن العربيّ، دار الفضيلة، الرياض.

11- الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت381هـ) (د.ت)، كتاب الخصال، صححه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاريّ، د.ط، الناشر مكتبة الصدوق، طهران-إيران.

12- الطوسيّ، أبو جعفر محمَّد بن الحسن ت460هـ (1414هـ)، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميَّة-مؤسسة البعثة، ط1، دار الثقافة، قُم-ايران.

13- عبد العزيز الجرجاني ت366هـ (1966)، القاضي علي، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ، القاهرة-مصر.

14- اللجنة العلميَّة في مؤسسة الإمام الصادق (ع) (1426هـ)، معجم طبقات المُتكلمين، ط1، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق، قم.

15- مانغونو، دومينيك (2008)، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، ط1، منشورات الاختلاف-الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر.

16- محمود، عبد المنعم عبد الله عبد المنعم (2022)، الاستلزام الحواريّ بين الأصالة والمُعاصرة (بحث)، مجلة بحوث الشرق الأوسط العدد73-مارس 2022، جامعة عين شمس.

17- ابن منظور، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت711هـ، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

18- موشلر، جاك، و ريبول، آن (2010)، القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة، ترجمه عن الفرنسيّة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف: عزّالدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا-المركز الوطني للترجمة، تونس.

19- نحلة، د. محمود أحمد (2011)، آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة.

20- هوانغ، يان، (2020)، معجم أكسفورد للتداوليَّة، ترجمة وتقديم: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان.

21- يول، جورج (2010)، التداوليَّة، ترجمة: د. قصيّ العتابيّ، ط1، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان.